



AL-TAJDĪD FĪ ‘ILM AL-KALĀM: NAZARIYYĀT NAQDIYYAH

Mosaab El khair Edris

Qatar Univerity

musabidris123@gmail.com

Abstract

This article aims to describe the nature and function of Islamic theology, the call for modernization in this field, as well as some theories and standards in its modernization. The study found that a contemporary Islamic theologian, as long as he was aware of the nature and function of theology, mastered the field of theology that his predecessors had presented, following developments in the field of thought and philosophy, including the methods of da'wah in "the new religion" as a theological phenomenon, he will produce a new theology with all its beliefs and credo, that can be compared with other beliefs. Considering that the general approach in the study of theology is deductive-argumentative, the researcher of this field can be used the other approaches, such as historical approaches, comparative, critical philosophy, as well as structural analyzes toward the theological references, that are rooted either from new or old references.

Keywords: *Islamic theology, modernization, new Islamic theology*

Abstrak

Artikel ini bertujuan untuk mendeskripsikan hakikat dan fungsi teologi Islam, seruan untuk melakukan modernisasi dalam bidang ini, serta beberapa teori dan ukuran di dalam modernisasinya. Penelitian ini menemukan bahwa seorang teolog kontemporer, selama ia sadar akan hakikat dan fungsi teologi, menguasai bidang teologi yang telah disajikan para pendahulunya, mengikuti perkembangan dalam bidang pemikiran dan filsafat, termasuk mengikuti metode-metode dakwah "agama baru" sebagai fenomena teologis, maka ia akan mampu memproduksi teologi baru dengan segala keyakinan dan kepercayaannya, yang dapat dikomparasikan dengan kepercayaan-kepercayaan lainnya. Dengan pertimbangan bahwa pendekatan umum

dalam studi teologi adalah deduktif-argumentatif, maka seorang peneliti bidang ini dapat menggunakan pendekatan lain, seperti pendekatan historis, perbandingan, filsafat kritis, juga analisis structural terhadap berbagai rujukan teologis, yang diambil baik dari rujukan lama atau baru.

Kata Kunci: Teologi Islam, modernisasi, teologi Islam baru

تمهيد

فإن معرفة الإنسان لها بداية بسيطة غير مركبة كائنة ما كانت هذه البداية، ثم تراكمت المعلومات، وارتبط بعضها ببعض فنشأت العلوم التي شققها البحث العلمي، واستدامة الطلب، والولع بكشف الحقائق، ومحاولة الانتفاع بتوظيفها النظري والعملي في حياة البشر بصياغة فكرهم وأنماط سلوكهم. وهذا هو الدور الحقيقي للبحث العلمي في النفع والكشف والتطوير أو التجديد. إنها حركة الحياة التي تنتقل بالبشر والكون كله من طور إلى طور في سعي دائم لا ينقطع إلى أن يبلغ الكتاب أجله.

والبحث فيعلم الكلام أو علم أصول الدين لا يختلف عن البحث في أي علم من علوم الإنسان في هذه الحقيقة؛ أعني أنه يطور العلم وفي الوقت نفسه يتطور معه، ويتخذ أدوات جديدة تُحَقِّقُ أهدافَ العلم بحسب ما يجد في المسائل، وبحسب المتغيرات من زمن إلى زمن؛ لكن هذا التطور أو التجديد يجب أن لا يكون على حساب حقيقة العلم المعين ووظيفته. وما من علم إلا له ثوابتٌ تُمَثِّلُ هويته وتُمَيِّزُه عن غيره من العلوم، وله متغيراتٌ لا تُهدِمُ حقيقته؛ بل تُصنِّمُ حياته واستمرار نفعه وقيامه بوظيفته الرئيسة جيلا بعد جيل، وزمانا بعد زمان.

ولقد وددت في ظل هذه النظرة أن أدلي بدلوي في بيان الموقف العلمي الذي أراه سديدا من إحياء دور علم الكلام وتطويره أو تجديده، في هذه الورقة البحثية التي أرجو أن تقدم نظرة نقدية لما يعرف في جهود دارسي الفلسفة الإسلامية المعاصرة بـ "علم الكلام الجديد"، بالإضافة إلى ما تسعى إليه من تحديد ضوابط هذا التجديد وآلياته بصورة كلية لها بعض النماذج التي قد تغني عن التفصيل.

وأنه ليلزمي - وفق ما استفتحت به كلامي - أن أبدأ ببيان حقيقة علم الكلام الأصيل أو التقليدي ووظيفته الرئيسة؛ فمن أهم دعائم البحث في تجديد العلوم، ومن أركان الدراسة العلمية الجادة والمثمرة في أي علم - الانتساب إلى علم واضح الموضوع، بين المسائل، يعرف الباحث فيه الثوابت الراسخة، والمتغيرات محل الاجتهاد والتجديد؛ حيث يكون تجديد التطوير ممكنا، ويمكن أن يكون للباحث المعاصر فيه معارف وأدوات جديدة يُفيد بها في القيام بوظيفة المتكلم الساعي إلى إثبات العقائد الدينية والدفاع عنها؛ وفق معطيات عصره وإمكاناته العلمية التي لم تكن متاحة من قبل، ووفق الشبه والاعتراضات أو الأفكار والفلسفات الجديدة التي تُعارض عقائده، أو تُفرض ظروف العصر عليه اتخاذ موقف مُحدد منها.

وعقب هذا يكون الكلام عن الحاجة إلى تجديد علم الكلام أو إلى علم كلام جديد، ويتضمن هذا تقييم بعض الصور المعاصرة لدعوى الكلام الجديد. وفي الختام يكون بيان تصور الباحث لعملية التجديد المنضبطة وآلياتها في علم الكلام، مع ضرب أمثلة لها في أبوابه الرئيسة التي تُكوّن أصول الدين وأركان العقيدة الإسلامية .

حقيقة علم الكلام ووظيفته

وإني - في هذا المقام - أترك الاشتغال بالحديث عن مأخذ تسمية "علم الكلام"، وسرد جملة التعريفات التي قُدمت للعلم عبر تاريخه الطويل، لا لقلّة أهمية ذلك وعدم جدواه؛ بل لكونه معلوما قد تجاوزه المشتغلون بالعلم إلى ضرورة مضمونه الذي يُعنى بالعقائد الإسلامية إثباتا ودفع شبهة ودرء اعتراض؛ لكن يلزم في تمام الهيكل النظري لهذه الورقة الاستناد إلى عدد من الملاحظات المتعلقة بالتعريفات التي قد تبدو متباينة في بيان حقيقة علم الكلام وتحديد وظيفة المتكلم المشتغل بالبحث في مسأله.

فبعض هذه التعريفات كان محورُه بيانَ موضوعِ علمِ الكلامِ في العقائد الدينية على وجه العموم، أو في البحث عن الله - تعالى - في وجود ذاته وبيان صفاته وأفعاله من بدء الخلق إلى المعاد، أو في بحث الموجود أو المعلوم بما هو عليه. وبعضها توجّه إلى بيان الغاية من الاشتغال به فاعتبر الدفاع عن العقائد الدينية مُمَثَّلَةً في مذهب، أو منسوبةً للإسلام بشكل عام. وبعضها شغله بيان المنهج بين العقل والنقل في إثبات العقائد، وفي درء الشبه عنها ودفع الاعتراضات¹.

ولئن اقترب "علم الكلام" بحسب بعض هذه التعريفات (المُمَثَّلَة لبعض الأطوار التاريخية) من الفلسفة في الموضوع وفي المنهج؛ فقد ظل متميزاً عنها على الدوام في الغاية المتعلقة بدراسة الموجود أو المعلوم، وهي بيان العقائد الدينية المنسوبة عند أصحابها لدين الإسلام والدفاع عنها، وهذا هو المقصود في تحديد مسار البحث فيه بأنه "على قانون الإسلام"؛ فهو بحث ينطلق من معارف نظرية جاء بها الوحي في الدين الإسلامي؛ لبيّنها ويدافع عنها. وهو بذلك علم شرعيّ موصولُ النسب بالوحي في حقيقته، وبوظائف النبوة في الغاية من الاشتغال به، ومن ثمّ كان من أوائل التعريفات التي رواها البياضي عن الإمام أبي حنيفة النعمان (ت150هـ) الذي أطلق عليه اسم "الفقه الأكبر": "الفقه في أصول الدين أفضل من فقه الأحكام، والفقه: معرفة النفس ما لها وما عليها. وما يتعلق منه بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر"².

ومن أتمّ التعريفات وأظهرها ما قدمه فيما بعدُ صاحبُ "المواقف" المتكلم الأشعري عضدّ الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت756هـ)، الذي وصفه أولاً ببيان أصول مسأله، وما يشير إلى المقصد أو الغاية من طلبه والاشتغال به؛ فذكر أنه المتكفل "بإثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام، واتصافه

¹ - راجع أستاذنا الدكتور حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام - ص 13: 23. ط2، مكتبة وهبة - القاهرة، مصر 1411هـ - 1991م.

² - عن العلامة كمال الدين أحمد البياضي: إشارات المرام من عبارات الإمام - ص 28: 30. تحقيق يوسف عبد الرزاق. ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، مصر 1368هـ - 1949م.

بصفات الجلال والإكرام، وإثبات النبوة التي هي أساس الإسلام وعليها مبني الشرائع والأحكام، وبه يُترقى في الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الإيقان³، وهذه الأمور في الحقيقة هي مسائل الإلهيات والنبوات والمعاد. ثم قصد إلى تعريفه ليكون طالبه على بصيرة لا يضلُّ برُكوبِ مَنْ عَمِيَاء، ولا يَشْكُ فَيَخْبُطُ خَبْطَ عَشَوَاء؛ فقال: والكلامُ عِلْمٌ يُقْتَدَرُ مَعَهُ على إثباتِ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ بإيرادِ الحُجَجِ ودَفْعِ الشُّبُهَةِ، والمُرَادُ بالعقائد ما يُقَصَّدُ به نَفْسُ الاعتقادِ دُونَ العَمَلِ، وبالدينية المنسوبة إلى دينِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّ الخَصْمَ وَإِنْ خَطَأَنَاهُ لا نُخْرِجُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الكَلَامِ. وذكر عقب ذلك موضوع العلم الذي يُمَيِّزُهُ عن غيره، وبيَّنَ جِهَةَ بَحْثِهِ المُفَضِّيةَ إلى الغاية منه فقال: «هُوَ المَعْلُومُ مِنْ حَيْثُ يَتَعَلَّقُ بِهِ إِثْبَاتُ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ تَعَلُّقًا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا»⁴.

وعلى هذا لا يقف البحث في مسائل «علم الكلام» على بيان العقائد المنصوصة وحيًا؛ بل يتجاوز ذلك إلى كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بإثباتها ودفع الشبه عنها تَعَلُّقًا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا. ونستفيد من كلام القاضي الإيجي أيضا الجمع في المنهج بين الإثبات الإيجابي الناقل من درجة التقليد إلى درجة الإيقان، وبين الجانب السلبي في حفظ عقائد الإسلام من الشبه والاعتراضات، وهذا القسم الثاني من الوظيفة الكلامية عماده الحجاج والمناظرة وإبطال أقوال الخصوم بما هو مسلم عندهم طلبا للإقناع أو إرغاما للمعاندين؛ على حين أن عماد الأول البحث والطلب وإقامة الحجة نقلية كانت أو عقلية أو وجدانية طلبا لليقين.

ومن قديم انقسم الدرس الكلامي قسمين، عُرِفَ أولهما باسم الجليل، وعُرِفَ الثاني باسم الدقيق أو اللطيف. وقد قال أبو حيان التوحيدي (ت400هـ):

³ - عضد الدين الإيجي: المواقف في علم الكلام. ص 4. ط عالم الكتب - بيروت، لبنان (ب - ت).

⁴ - الإيجي: المواقف. ص 7.

«وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين...، والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق ينفرد العقل به، وبين جليل يفرع إلى كتاب الله تعالى فيه»⁵.

إن البحث في جليل الكلام إنما يكون عن أصول الدين والعقائد والمسائل الجلية المُصَرَّح بها في القرآن والسنة من الإلهيات والنبوات والسمعيات، وفق الأدلة النقلية، والأدلة العقلية الظاهرة المشار إلى أصولها في الكتاب والسنة، وقد ألحق بذلك في تاريخ الكلام مسائل ذات صلة ظاهرة بأحكام عملية؛ مثل: الكلام في حكم مرتكب الكبيرة، والكلام في حقيقة الإيمان والإسلام، والكلام في وجوب الإمامة. وقد يطلق على ذلك اسم «علم العقائد» عند المتأخرين خاصة المتكلمين الأشعرية المغاربة؛ فيكون أخص من «علم الكلام» الذي يضم الدقيق والجليل، ويكون العلم بأصوله واجبا على كل مُكَلَّف؛ بينما يكون الاختصاص بعلم الكلام من فروض الكفاية. وإلى هذا الباب تنسب مؤلفات أئمة الفقهاء والمحدثين التي كتبت في مجال العقائد.

أما البحث في دقيق الكلام ولطيفه فيدور حول أمور لا تدخل تحت المسائل الأصلية، وإن كان لها ارتباط بها ومناسبة تجعلها بمثابة مقدمات النظر فيها؛ مثل: الكلام عن الأجسام والجواهر والأعراض، والحركة والسكون والطفرة، والمداخلة والمجاورة والكمون، والزمان والمكان، والخلاء والملاء، والمعلوم والمجهول، والموجود والمعدوم، وفناء الأشياء وبقائها، والكلام في التولد، وفي الإنسان، وفي المعارف، وفي المعاني والأحوال، وفي العلاقة بين الصفة والموصوف، والاسم والمسمى... إلى غير ذلك من المسائل النظرية الدقيقة التي بحث عنها الفلاسفة، وراج الكلام عنها منذ بدأ عصر الترجمة، وأبدى المتكلمون آراءهم ونظرياتهم فيها، وبنوا عليها كلاما في فروع المسائل الأصلية؛ فأكثر لطيف الكلام من أبواب الفلسفة الطبيعية المتعلقة بالعالم الذي هو فعل الله وخلقُه عند المتكلمين المسلمين، ومعرفة الفعل وأحواله من طرق معرفة الفاعل وصفاته،

⁵ - أبو حيان التوحيدي: ثمرات العلوم. ص 192، 193. ط مطبعة الشرقية، مصر 1323هـ.

ومعرفةُ الشاهد من سُبُل معرفة الغائب؛ ومن ثَمَّ التحقَّ باللطيفِ الكلامُ عن المعرفة وطرق الاستدلال. وهذه المسائل في جملتها تُبَحِّثُ في كتب المتأخرين تحت اسم المُقَدِّمات والأُمُور العامة.

وقد بالغ أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط (ت300هـ) واشتد في الدعوى بغير حق ولا برهان، حينما ذكر طرفاً من تلك المسائل في كتابه «الانتصار»، ووصفها بأنها من غامض الكلام ولطيفه، ثم قرر أن بحثها كان مما اختص به المعتزلة دون غيرهم من المتكلمين، ثم قال: «ومما يدل على ذلك أنك لا تجد على أحد من المعتزلة في هذه الأبواب التي ذكرتها حرفاً واحداً إلا لمن خالفه من المعتزلة، فأما لغير المعتزلة؛ فلا تجد حرفاً واحداً في هذه الأبواب إلا لإنسان سرق كلاماً من كلام المعتزلة فأضافه لنفسه»⁶.

والغاية من ذكر ذلك بيان أن البحث في «علم الكلام» لا يقتصر على هذه المسائل التي درسها المتكلمون في العُصُرِ القديمة؛ بل يمتدُّ وراء ذلك آفاقاً واسعة في دقيق الكلام، وفي دفع الشبه، وفي بيان بطلان المعارض من الأفكار والفلسفات والمذاهب ما شاء الله له أن يمتد. وكثيراً من الموضوعات التي يذكرها دعاة علم مستقل للكلام الجديد اليوم؛ مثل: قضايا الحداثة وما بعد الحداثة، وآراء التأولين الجدد (الهرمينيوطيقا) وأثر ذلك على التفكير الديني، وعلى قداسة نص الوحي ودوره في توجيه المجتمع المسلم. ومثل: الكلام عن نسبية المعرفة، والتعددية الدينية والعقلانية، وغير ذلك من المسائل التي يرون أنها جديدة لم تطرح من قبل على بساط البحث في «علم الكلام» التقليدي. يمكن أن تبحت نظرياً في مسائل الدفاع عن العقائد، أو في مسائل دقيق الكلام ولطيفه.

⁶ - عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط (ت300هـ): الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص 7. تحقيق الدكتور نيبج (الأستاذ بجامعة أسالة بالسويد). ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب - بيروت، لبنان 1993م. وهي مصورة عن طبعة القاهرة الأولى 1344هـ - 1925م.

بين تجديد علم الكلام ودعوى الحاجة إلى علم كلام جديد

المشهور أن ظهور مصطلح «علم الكلام الجديد» أو صكه بهذه الصياغة يرجع إلى أحد علماء شبه القارة الهندية، وهو الشيخ شبلي النعماني (ت1332هـ - 1914م)، في كتابه «علم الكلام الجديد» الذي دعا في مطلعته إلى توسيع دائرة البحث في علم الكلام بالالتفات إلى الشبهات الجديدة المتعلقة بالنبوة والمعجزات وغير ذلك من الشبهات التي فرضتها أحوال الاتصال بالحضارة الغربية الحديثة وأدواتها العلمية الجديدة. وبين أن الجانب الدفاعي من الكلام القديم قد عني بما عني به من دفع الشبه عن العقائد، بسبب أن شبهات الخصوم كانت تركز على العقائد فقط، بينما تتمحور الشبهات في زماننا حول المسائل الأخلاقية والقانونية من الدين، وليس حول العقائد فقط؛ فإن الباحثين الأوروبيين في هذا العصر يعتبرون الدليل الأقوى على بطلان الدين في مسائل تعدد الزوجات، والطلاق، والجهاد، والأسرى. وبناء على ذلك يلزم أن يكون درء الشبه في هذه المسائل وأمثالها من اختصاص علم الكلام الجديد. ولذا أدرج النعماني في هذا الكتاب مسائل جديدة مثل: حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والإرث، والحقوق العامة للشعب، بجوار مباحث الإلهيات والنبوات والسمعيات وبعض مسائل الأحكام التي سبق إلحاقها بمسائل علم الكلام عبر القرون الماضية⁷.

وسواء كان النعماني هو أول صك مصطلح «علم الكلام الجديد» أو كان مسبقاً؛ فإنه يمكننا أن نرصد محاولات تطوير علم الكلام وتوظيف مبادئ العقيدة في الصراعات التي تخوضها الأمة مع المشكلات والتحديات الجديدة قبل زمان النعماني وبعده في أثناء مرحلة الإحياء والدعوة إلى النهضة التي أعقبت فترة الجمود وترك الاجتهاد في معظم العلوم الإسلامية. ومن الأسماء التي خاضت هذا المعترك وحاولت تقديم رؤية نقدية جديدة نجد السيد جمال الدين الأفغاني،

⁷ - راجع شبلي النعماني: علم الكلام الجديد. ترجمة جلال السعيد الحفناوي، والسباعي محمد السباعي. ط1، المركز القومي للترجمة بوزارة الثقافة - القاهرة، مصر 2012م.

وتلميذه الشيخ محمد عبده خاصة في عمله الفذ «رسالة التوحيد»⁸، وبعدهما العلامة محمد إقبال في شبه القارة الهندية أيضاً، ولا نستطيع أن نهمل هنا ذكر الجهد الجبار، والدراسة الكلامية الشاملة التي قام بها العلامة التركي شيخ الإسلام مصطفى صبري في عمله الموسوعي «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» .. وهذا الكتاب في حقيقته دراسة كلامية تضمنت - من وجهة نظر مؤلفه - مناقشة المذاهب الغربية الحديثة والتيارات المتأثرة بها في العالم الإسلامي؛ وفق المعارف التي أتاحت للشيخ عنها، ووفق المرجعية الكلامية المكونة لأصوله الفكرية؛ بقطع النظر عن موافقتنا أو مخالفتنا له في كل ما انتهى إليه من آراء وأحكام.

وهذه الجهود التجديدية في الحقيقة لم تخرج في جملتها عن حقيقة «علم الكلام» في موضوعه ولا في وظيفته وهدفه؛ فنظرت في مسائل الشبهات الجديدة وربطتها بأصولها التقليدية، ثم استحدثت من وسائل الرد والدفع ما يتناسب معها. وقد واكب هذه الجهود في الكلام الشيعي السيد محمد حسين الطباطبائي، والشيخ مرتضى المطهري، والسيد محمد باقر الصدر وغيرهم، ولعل الاهتمام بقضايا تجديد علم الكلام بينهم قد أخذ حيزاً أكبر ظهر في تشكيل مادة دراسية تحت عنوان «علم الكلام الجديد» في جامعة طهران، وقامت بعض الدروس تحت العنوان نفسه، وكذلك بعض الملتقيات، في الحوزة العلمية في مدينة قم. ولا أعني بهذا عدم رعاية الموضوع في الدرس الأكاديمي السني، ولقد حضرت منذ خمسة

⁸ - وقد وصفها أستاذنا الدكتور حسن الشافعي بحثه بعنوان «الإمام محمد عبده والتجديد» الذي شارك به في الذكرى المئوية للإمام بمكتبة الإسكندرية بمصر؛ فقال: «متوسطة بين المختصرات والمطولات، سهلة الأسلوب، مشرقة الديباجة، متماسكة الفكر والاستدلال، لم يغفل فيها الطريقة التقليدية في التأسيس العقلي، وأضاف إليها ما نشأ من شبهات وإيرادات» في الفكر العصري ... متوازنة تتحرر من تطرف بعض المتكلمين من أهل السنة الذين أوجبوا على الناس اعتناق العقائد التي قررها الدين وطرفهم في إثباتها أيضاً، ولا تبعد كثيراً عن مواقفهم في دقيق المسائل كمسألة الكلام مثلاً ...، وهي تعيد ترتيب المسائل من حيث وزنها وأهميتها في نظر الفكر المعاصر، فهي تعطي لمسألة النبوة ووظيفتها وحكمتها ما يقرب من نصف حجم الرسالة، ولا تهمل في الوقت نفسه المسائل المعتادة في العرض التقليدي للعقيدة. وهي تقف موقفاً معتدلاً بين الكلام والتصوف، وللشيخ عناية بأمر التصوف، لكنه لا يتردد في نقد ما يخالف السنة من رسومه، ومسالك المتسحين به، مع تحذير شديد من نزعة التضليل والتكفير التي يتورط فيها الجهلة المستغلون».

وعشرين عاما الندوة السنوية الثالثة للجمعية الفلسفية المصرية، بعنوان «نحو علم كلام جديد»، وقد تم عقدها في كلية أصول الدين - القاهرة - جامعة الأزهر 1411 هـ - 1991م. وكانت فيها صولات وجولات لدعاة التجديد الذي لا يهدم العلم ولا يهدر وظيفته الأصلية، قبالة الدعاة لعلم جديد قد يكون مقطوع الصلة بالعلم القديم.

لكننا مع بروز هذا المصطلح الجديد وشيوعه في شرق العالم الإسلامي وغربه نتساءل: هل نحن بإزاء تجديد لعلم الكلام أو علم جديد مستقل تماما عن سلفه؟ وسأقف هنا عند هذا الحد ولن أتابع فأتساءل عن المشترك بين العلمين ليدخلا تحت اسم علم الكلام!

وعلى أية حال لا يشك الناظر في تاريخ علم الكلام في وقوع تطور وتغير في المسائل الدقيقة الفرعية، وفي الوسائل وأدوات الاستدلال عبر مراحل تاريخ العلم وأطواره المتنوعة؛ لكن ذلك التغير الذي توسع أحيانا وضاق أحيانا أخرى لم يصب خصوصية موضوع علم الكلام ولا الغاية من الاشتغال به؛ مهما كان الموقف في قبول ذلك التغير أو رفضه.

لكن أصحاب دعوى «الكلام الجديد» لهم وجهة يلزمنا الإشارة إليها على نحو ما، وأيا ما كان الأمر سأكتفي. في هذا المقام - بتقديم صورتين لهذه الدعوى: أولاهما من الإطار الشيعي، والثانية حمل كبرها في مصر الدكتور حسن حنفي وتلاميذه⁹.

وفي ساحة الشيعة الاثنا عشرية أعلن الأستاذ (محمد مجتهد شبستري) عن أساس هذه الدعوى حين تساءل عن مدى إمكان قيام «علم الكلام» في صورته التقليدية بالإجابة عن الأسئلة المطروحة في زماننا حول «الدين» وحول «التدين»،

⁹ - سبق أن وظفت ذكر هاتين الصورتين في مقام آخر من بحثي: مسائل كلامية لدى العلامة ابن خلدون. بحث منشور بمجلة الدراسات الإسلامية. مجلة علمية محكمة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بباكستان - مج 50 ع 3 (يوليو - سبتمبر 2015م).

ومدى قدرته على مواجهة هذه البحوث والقضايا¹⁰. وإذا كانت الإجابة عنده بالنفي؛ فالدكتور (أحد فرامرز قراملكي) يحاول تعليل ذلك باقتصار «علم الكلام» التقليدي على الجانب النظري التقريري للعقائد، دون عناية بالبعد الواقعي للدين في حياة الإنسان في قيمه وسلوكه. ويزيد الأمر تفسيراً بأن التوحيد وما يتعلق به من المسائل في الكلام التقليدي كان مركز الرحي، وكان الاهتمام بالتصور المنطقي هو الذي يشكل مفهومه، على حين أن الاهتمام في الدرس الحديث إنما هو بالبعد الواقعي للدين¹¹.

وقد يقرب الأستاذ محمد مجتهد في نظريته لعلم الكلام التقليدي، وما ينبغي أن يكون عليه علم الكلام الجديد - من قانون الحالات الثلاث للفلسفة الإنسانية عند «أوجست كونت» الذي يبدأ بالحالة اللاهوتية، ثم الميتافيزيقية، وينتهي بالوضعية¹². فهو يرى أن «علم الكلام» قد مر في تاريخه بمراحل تسلم نهايتها إلى «علم الكلام الجديد»؛ فأولها: تبين العقائد أو تحديدها، وتظهر الحاجة إلى هذا البيان والتحديد عند الاختلاط بأهل الأديان والفلسفات الأخرى عندما يلزم تحول الإيمان البسيط إلى عقيدة. والمرحلة الثانية: إثبات العقائد وإقامة البراهين. والثالثة: دفع الاعتراضات والإجابة عن الشبهات¹³.

وكما تمَّ انتقاد كلام أوجست كونت في قانون الحالات الثلاث بأن هذا الترتيب غير لازم، وفي التاريخ القديم والحديث ما يثبت اجتماع هذه الحالات في زمان واحد، كذلك يمكن رد كلام محمد مجتهد بأن البعد الواقعي والتطبيقي للدين

¹⁰ - راجع محمد مجتهد شبستري: مدخل إلى علم الكلام الجديد - ص 26. ترجمة جواد علي، وعلاء زيد. ضمن سلسلة (كتاب قضايا إسلامية معاصرة). ط1، مؤسسة الأعراف للنشر 1418هـ - 1998م.

¹¹ - راجع أحد قراملكي: الهندسة المعرفية للكلام الجديد - ص 192، 193. ترجمة: حيدر نجف، وحسن العمري. ومراجعة: عبد الجبار الرفاعي. ضمن سلسلة (كتاب قضايا إسلامية معاصرة). ط1، دار الهادي 2002م.

¹² - راجع ليفي بريل: فلسفة أوجست كونت - ص 35. ترجمة الدكتور محمود قاسم، والدكتور السيد محمد بدوي ط دار الكتب المصرية 1952م.

¹³ - راجع محمد مجتهد: مدخل إلى علم الكلام الجديد - ص 27: 30. وفي المقارنة نرى المرحلتين الثانية والثالثة من كلام محمد مجتهد تقابلان الحالة الميتافيزيقية من قانون أوجست كونت الذي ينتهي إلى حالة الوضعية؛ على حين ينتهي مجتهد إلى كلامه الجديد الذي يهتم بالبعد الواقعي والتطبيقي للدين.

الذي يحسبه من إبداع الدرس الغربي الحديث والمعاصر - قد سبق في دراسات المسلمين على نحو علمي دقيق إلى جوار علم الكلام منذ القرن الرابع الهجري في أعمال العامري، وربما قبله في أعمال بني نوبخت، دون أن يكون منافسا لعلم الكلام؛ بل كان بحثا في مجال البحوث الدينية المظهرة لفضيلة الإسلام على غيره من الأديان في تلك الأبعاد الواقعية وغيرها، وكان مكتملا لعمل المتكلم الذي كان يفيد من هذه البحوث في الرد على المخالفين بحسب ما يناسب مسائل العقائد.

ومن آيات ذلك كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» لأبي الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري (ت381هـ)¹⁴. وفي هذا الكتاب دراسة مقارنة عميقة بين الإسلام في جانب، واليهودية ودين الصابئة والنصرانية والمجوسية والوثنية (الشرك) في الجانب الآخر؛ وفق ما جاء في قول الله - تعالى :- ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) 17/ الحج. وقد عُقدت المقارنة في مجالات محددة هي:

العقيدة: وتشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والعبادة: وتشمل الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد.

والشريعة: وتشمل المعاملات والحدود (وقد خصص العامري لذلك كتابا لم يصلنا بعنوان «الإبانة عن علل الديانة».

والنظام السياسي: أي نظام الحكم.

والنظام الاجتماعي: أي بنية المجتمع وتكوينه (الأجيال)، والأخلاق ممثلة في أسس التعامل والعلاقات بين طبقاته، وكيفية معاملة الرعايا والأقليات فيه.

¹⁴ - المنشور بتحقيق الدكتور أحمد عبد الحميد غراب. ط1، مؤسسة دار الأصاله للثقافة والنشر والإعلام - الرياض، السعودية 1408هـ - 1988م.

والإنجاز الحضاري: أي ما قدمه الدين خلال التاريخ من إنجازات حضارية تتعلق بتقدم الشعوب التي اعتنقته.

والإنجاز الثقافي المعرفي: أي ما قدمه الدين من إنجازات في مجالات الثقافة والعلوم¹⁵.

ثم ختم الكتاب بدفع بعض شبه خصوم الإسلام التي ما زالت تتردد بينهم إلى زماننا حول انتشار الإسلام بالسيف، والفتن الواقعة بين المسلمين واختلافهم وتباغضهم، وبيان القرآن، والبشارة بالرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - في التوراة والإنجيل.

ولم يكن هذا الدرس في أبعاده الواقعية التطبيقية للدين على عمقه وجديته منافسا مناهضا لعلم الكلام؛ بل وجدنا العامري يثني على المتكلمين في أداء وظيفتهم والقيام بواجبهم، ويدفع عنهم تهمة بعض المحدثين كما دفع عن علماء الحديث تهمة بعض المتكلمين؛ وذكر أن علماء الكلام هم المحتسبون بتوطيد أركان الدين، والمجادلون عنه بالحسنى، والحامون له بالفكرة، وقال: «وإذ قد وُجد أهل هذه الصناعة ذابِّين عن حريم الدين، ومستخلصين له من لواحق القدح، وصائنين لأصوله من شوائب الجرح؛ فمن الواجب أن نعلم أن آثارهم في استحقاق الشكر والإحماد لن تكون قاصرة عن آثار المدافعين عنه بالجلد والقوة والسلاح والعدَّة»¹⁶.

وأيًّا ما كان الأمر فقد نجح «علم الكلام التقليدي» من وجهة نظر محمد مجتهد في القيام بوظيفته في تلك المراحل بسبب امتلاكه لخاصيتين رئيسيتين تتعلقان بطبيعة النظر إلى الحقائق وبدور العقل في بيانها وإثباتها نظريا في تلك الأزمنة السابقة؛ على حين أن النظرة إلى الحقائق في زماننا الجاري، وإلى دور العقل النظري في بيانها وإثباتها، كل ذلك لم يعد على ما كان عليه من قبل .. قال:

¹⁵ - انظر السابق: دراسة الدكتور أحمد عبد الحميد غراب . ص 22، 23.

¹⁶ - أبو الحسن العامري: الإعلام بمنابح الإسلام . ص 110: 112.

«ففي هذا الجو الفكري الجديد فُقدَ الجزم الفلسفي والعلمي، وأصبح الجري وراء اليقين بالشكل الذي كان يعمل به السابقون عديم الجدوى»¹⁷.

وبناء على هذا تكون الدعوى لإنشاء علم مستقل للكلام الجديد لا يقف عند إثبات التصور المنطقي النظري لمفهوم التوحيد وما يتعلق به من المسائل؛ بل هو علم تكون له مسائله الخاصة بالإضافة إلى بعض المسائل التي لها جذور تقليدية يعاد طرحها بأسلوب عصري، ويكون له أيضا منهجه الجديد الذي يناسب الاهتمام بالبعد الواقعي للدين، دون إهمال للانطلاق من جانب الإيمان والدفاع عنه باعتبار أن ذلك هو أهم ما يُمَيِّزُ الباحث في «علم الكلام الجديد» عن الباحث في «فلسفة الدين»¹⁸.

وهذا يعني . كما يرى أحد قراملكي . أن مفهوم تجديد علم الكلام لا يقتصر على ضمّ مسائل جديدة فحسب، وإنما يتّسع ليشمل التجديد في: المسائل، والهدف، والمناهج، والموضوع، واللغة، والمباني، والهندسة المعرفية.

فالتجديد في المسائل يعني تولد مسائل جديدة، نتيجة للشبهات المستحدثة، ينجم عنها نمو وتطور علم الكلام نفسه.

أمّا التجديد في الهدف؛ فيعني تجاوز الغايات المعروفة لهذا العلم، التي تتلخّص في الدفاع عن المعتقدات، إلى تحليل حقيقة الإيمان ومجمل التجربة الدينية.

كما أن التجديد في المناهج يعني التحرُّر من المنهج الأحادي (الجدلي)، والانفتاح على مناهج متعدّدة في البحث الكلامي، تشمل المناهج الهرمنيوطيقية [علم تفسير النصوص وتأويلها]، والسيميائية [علم الدلالة]، والتجريبية، والبرهانية، مضافاً إلى ظواهر النصوص والحقائق التاريخية.

¹⁷ - محمد مجتهد: مدخل إلى علم الكلام الجديد . ص 33.

¹⁸ - راجع أحد قراملكي: مقال بعنوان «الكلام الجديد وفلسفة الدين» . مجلة المحجة، لبنان، العدد الثامن،

شتاء 2004م.

بينما يعني التحول في الموضوع، الخروج من الاهتمام بقضايا وجود الباري وصفاته، والنبوة العامة والخاصة، والمعاد، إلى نطاقٍ واسعٍ يستوعب جميع القضايا الموجودة في النصوص المقدسة، سواء منها الناظرة إلى الواقع أو الناظرة إلى الأخلاق والقيم.

أمّا التجديد في اللغة؛ فيتحقق بالانتقال من لغة المتكلمين القديمة، ومعمياتها وألغازها، إلى لغة حديثة تُعبّر بيسر وسهولة عن المعاني وتفهمها المخاطب من دون عناء؛ لأنها لغة معاملات وحياته اليومية.

وبموازاة ذلك لا بدّ من التجديد في المباني، فالمتكلم التقليدي اهتم سابقاً بترسيم مباني خاصة في المعرفة، تستند إلى المنطق الأرسطي، وشيء من ميراث الفلسفة اليونانية، وجعلها ممهدة للمباحث الكلامية، بينما انهارت بعض تلك المباني حين افتتحت الفلسفة الأوروبية الحديثة ثغرات اخترقت جدار المنطق الأرسطي الصوري...، وتعرض المفهوم التقليدي للعقل إلى عاصفة نقدية، وغدا للفكر الإنساني بعد ذلك صياغات متنوّعة تستند إلى معطيات مختلفة من فلسفة العلم والفيزياء الجديدة. وذلك كله يدعو إلى استئناف النظر في المباني الماضية لعلم الكلام؛ لأنّ التجديد في المسائل، والموضوع، والهدف، والمناهج، واللغة - يتطلب تجديداً في المباني¹⁹.

ولا يخفى أن هذا الكلام المُقدّر لدور «علم الكلام التقليدي» أو «المدرسي» كما يحلو لهم تسميته أحياناً. لا يخفى أن له وجهة خاصة أنه يتناول بلسانٍ عصري قضايا معاصرة يفهمها الناس ويتفاعلون معها؛ لكنه في الحقيقة يقوم بتوسيع دائرة البحث الكلامي وكأن «علم الكلام» هو علم الإسلام الأوحد، والعلم المعنيّ بجميع الجوانب النظرية والتطبيقية في الدين.

¹⁹ - راجع أحد قراملكي: تحليل مفهوم التجدد في الكلام الجديد. ص 17: 23. ترجمة: حبيب قباض، مجلة المنطق - ع 119 (خريف وشتاء 1997. 1998).

وفي علوم الإسلام علوم أخرى يمكن أن تعنى وفق - حقيقتها ومناهجها - بهذا الذي يودون حمله على الكلام المختص بالجانب النظري العقائدي من الدين إثباتا ودفاعا، ولم تنقطع الحاجة إليه ولا تنقطع ما بقي المسلمون، وهم باقون بإذن الله - تعالى - إلى أن يبلغ الكتاب أجله. وبإمكان الداعية أو المفكر الإسلامي الذي شاع ذكره في زماننا هذا أن يمتاح من نتاج علم الكلام النظري، ومن علوم الإسلام التطبيقية القابلة للتجديد في هذا المجال (مثل: الأخلاق والتربية والاجتماع وغير ذلك)، ما يُمكنه من أن يُجيبَ به عن تلك الأسئلة العصرية التي تدور حول «الدين» وحول «التدين». وإنه لا يجلب العارَ ولا الشنارَ إلى «علم الكلام المدرسي» أن لا يقدم الإجابة التامة عن هذه الأسئلة المزعومة، وحسبه أن يقدم - وفق حقيقته ووظيفته - الأصول التي تعتمد عليها تلك الإجابة. وبإمكان المتكلم أن يقدم هذه الإجابة التامة إذا كان له اشتغال بهذه العلوم العصرية؛ لكنه لا يقدمها حينئذ من حيث هو متكلم، وقد كان علماؤنا القدامى متكلمين وفقهاء وصوفية، وكان فيهم من له اشتغال بالفلسفة والفلك والطب وغير ذلك من العلوم النظرية والتطبيقية، ومع إفادتهم في بحثهم العلمي من كل هذه المجالات كانوا على وعي بالحدود الفاصلة بين كل علم في حقيقته وفي الوظيفة التي يؤديها.

وإذا كنتَ رافضا لهذه الصورة من التجديد ببناء علم كلام جديد في جملتها، مع تقديري لها واعترافي بوجاهة بعض أجزائها، وقبولي منها لما لا يعارض حقيقة «علم الكلام» ولا يهدر وظيفته الأصلية؛ فهناك صورة أخرى أرفضها جملة وتفصيلا، ولا أجد لها وجاهة؛ بل أراها فوق ذلك هداما وتجديفا وهذرا لآداب العلم وقيم العلماء، مع أنها في الحقيقة تعتمد على كثير من أصول الصورة التي سبق رسمها، وتعنى بالواقع الديني، وبالسلوك العملي للمتممين إليه؛ لكن بصورة معكوسة إذ لا تبدأ من نص الدين ومعاييره المتعالية ثم تنتقل إلى فهم الواقع والتعامل معه؛ بل تبدأ من الواقع ومشكلاته ثم تنتقل إلى فهم النص وتوجيه أحكامه بما يناسب هذا الواقع وينفعل لمعطياته المتغيرة، وكلما تغير الواقع كلما

أنتج فهما جديدا وتوجيهها جديدا لنص الوحي، وحاصل ذلك في قضيتنا علم كلام جديد مع كلِّ تغييرٍ للواقع وبروزٍ لتحديات جديدة تواجه الأمة²⁰.

والصحيح في طبيعة الأشياء وانسجامها بين ما هو إلهي وما هو إنساني أن الإنساني هو الذي يتوافق مع ما هو إلهي؛ أي أن الوحي الإلهي هو الذي يغير الواقع الإنساني ليتوافق معه، وليس العكس²¹.

والحق أن هذه الصورة تنتهي في واقع الأمر إلى مقاطعة علم الكلام التقليدي وهدم أركانه في إطار مشروعٍ مُنظَّم يوصف بأنه انتقال من العقيدة إلى الثورة، أو من التراث إلى التجديد. ومصداق ذلك تعبير الدكتور حسن حنفي عن تجديده في علم الكلام بتغيير موضوعه من البحث فيما يتعلق بالله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله التي تضم النبوات والجزء؛ إثباتا بإقامة البراهين ودفاعا بدرء الشبه والاعتراضات عن العقائد الدينية. إلى بحث موضوع جديد يكون محوره هو الإنسان بحقوقه ومشكلاته العصرية.

وفي توجيه ذلك وتقريبه يقول: «صحيح ما قاله الأشعري قديما في تحليل مضمون العقيدة بهذه العقائد الست: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره من الله. هذا صحيح، وهذه القواعد مستنبطة من القرآن الكريم كما يقول. وأنا الآن في عصر مختلف أعيش بعد الأشعري بأكثر

²⁰ - راجع حوار مع الدكتور حسن حنفي: الاتجاهات الجديدة في علم الكلام. ضمن (قضايا إسلامية معاصرة - الاجتهاد الكلامي .. مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد). تحرير عبد الجبار الرفاعي. ص 21: 24. ط دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان (ب - ت).

²¹ - وهذا ما أجاد سيد حسين نصر - بقطع النظر عن مذهبه وتوجهه الميرمي - التعبير عنه حين قال:

In accordance with the real nature of things it is the human that must conform to the Divine and not "the Divine to the human

انظر تصدير الترجمة الإنجليزية لكتاب عمدة السالك وعدة الناسك، لابن النقيب المصري (ت769هـ): ترجمة نوح حاميم كلر الشاذلي الشافعي.

.Amana publications Beltsville, Maryland U.S.A, 1991

وليس هذا بالجديد؛ فمن قبل تبنى إخوان الصفا والفارابي وابن سينا نظرية الفيض الفلسفية، وقالوا بالعقول العشرة، ثم زعموا أنها هي الملائكة حين أرادوا الجمع بين ما بدأوا به من الفلسفة وبين الدين؛ فانطلقوا من الآراء الفلسفية أصلا ثم سعوا لحمل نصوص الدين على موافقتها، وكانت الآراء الفلسفية عندهم حاكمة على النصوص لا محكومة بها ..

من ألف عام. الأشعري لم يكن مهزوما، كان منتصرا، وكانت الجيوش فاتحة في القرن الرابع، وكان الإسلام منتشرا من المغرب إلى أقصى الصين... فلم تكن له قضية مع الأرض، وكانت الثروة موجودة ومتوفرة، وكان العلم مزدهرا، وكنا مسيطرين على الطبيعة. أما الآن فالأمر قد اختلف من النصر إلى الهزيمة، من الفتح إلى الاحتلال، وهذا يحتم عليّ أن أستنبط عقائد جديدة. أنا أريد أن أحسس الناس لعصرهم؛ فهل أستطيع أن أجعل قواعد ستا للعقيدة أيضا: مقاومة الاستعمار، ومقاومة التخلف، ومقاومة الصهيونية، ومقاومة التجزئة والتشردم، ومقاومة القهر، ومقاومة الفقر. والقرآن يمدني بذلك... ((فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)). من هو رب هذا البيت؟ ((الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ)) 3، 4/ قريش. فالإيمان بالله مرتبط بالخبز والأمان. والأشعري ما كان يمكن أن يرى ذلك؛ كان الرغيف موجودا، وكانت حرите موجودة. أما أنا فرغيفي غير موجود، وحرיתי غير موجودة. هو متكلم عصره، وأنا متكلم عصري. أنا أريد تحرير فلسطين، وسأسأل يوم القيامة عن ضياع فلسطين، وأنا متكلم جديد»²².

والدكتور حسن حنفي لا يرى ضم أصول اعتقاده الستة إلى ما أسماه أصول الأشعري، فحين تنتهي مرحلة المقاومة وتسترد الأمة كرامتها وأرضها وثرواتها ستبدأ مرحلة جديدة تُتخذ فيها أصول جديدة تناسب الواقع الجديد²³.

وأسلوب الدكتور حسن حنفي في الحوار هادئ إلى حد ما؛ لكنك تراه في مقدمة مشروعه عن التراث والتجديد يسرف في التحليل النفسي والسياسي والاجتماعي بأسلوبٍ فجٍّ لمُقَدِّماتٍ كُتِبَ أصول الدين التراثية التي تُسْتَفْتَحُ بِحَمْدِ الله - تعالى - والثناءِ عليه بما هو أهله، وبالصلاةِ على النبيِّ الكريمِ وذكرِهِ بِحَقِّهِ، مُعَلِّناً عن باحثٍ ومتكلمٍ جديدٍ في زمانٍ ما ينبغي له فيه التَوَقُّفُ عِنْدَ حَمْدٍ وَلَا ثَنَاءٍ وَلَا دُعَاءٍ وَلَا تَوْبَةٍ وَلَا اسْتِغْفَارٍ وَلَا تَعَلُّقٍ بِشَخْصِيَّةِ نَبِيِّ مُجْتَبَىٍ وَمُشْفَعٍ؛ بل يجب أن

²² - حوار مع الدكتور حسن حنفي: الاتجاهات الجديدة في علم الكلام. ص 29، 30.

²³ - راجع السابق. ص 30.

يتحرر من تلك القيود التي تخضعه أولاً لسلطان السماء، ثم لا تلبث أن تخضعه لسلطان الأرض؛ ليكون اشتغاله بالثورة والمطالبة بالحق الضائع والحريات المهذرة والأرض المحتلة؛ اعتماداً على قدرات الإنسان العقلية (العقل المصلحي المراعي لمصالح الأمة) وإمكاناته العملية المجردة²⁴.

وأكد أقول - حين أجنب زخرفة القول -: إن هذه الدعوى بهذا الأسلوب الفج ما هي إلى نداء صريح للخروج من التزام التوحيد واتباع الرسل إلى تأليه الإنسان.

وإن الاشتغال بالمطالبة بالحق الضائع والحريات المهذرة والأرض المحتلة...، وغير ذلك من القضايا التي ينبغي أن يعنى بها المسلم.. كل ذلك له صلة وثيقة بقيم المؤمن صحيح الاعتقاد والملتزم بشرائع الدين القويم؛ لكن هذه الصلة القوية لا تعني أن تشكل هذه القضايا موضوع «علم أصول الدين» أو «علم الكلام»، وإذا كان الدكتور حسن حنفي وأشباعه قد غفلوا عن وجدان ما يتحمل هذه القضايا في العلوم ذات الطابع العملي والتربوي؛ فليعمدوا إلى ابتكار علم جديد يُحمّلونه ما يشاءون من الموضوعات، وليكن لهم علم ولأهل أصول الدين والمتكلمين علم آخر..

وما أحسب أن هاتين الصورتين السالفتين الداعيتين لعلم كلام جديد لهما بالتجديد في علم الكلام صلة؛ فثمة فارق كبير بين تجديد علم قائم له موضوع وهدف أو وظيفة محددة، وإنشاء علم جديد مستقل بموضوع وهدف ومنهج...

كلمات في التجديد وضوابطه:

لن أكرر الكلام حول مفهوم التجديد وربطه بمفهوم الإحياء، أو مفهوم التطور الذي يضم الإضافة والتنمية والتغيير؛ فهو على المعنى الأول يتعلق بالثوابت

²⁴ - راجع الدكتور حسن حنفي: مقدمة من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية). ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، والمركز الثقافي العربي للطباعة والنشر - بيروت، لبنان 1988م.

والمتمغيرات، بالأصول والفروع جميعا ما دام المُجَدِّدُ يردُّ العلم المُجَدَّدَ سيرته الأولى من الجدة والنقاء، وينفي عنه مضار الابتداع، ويحقق مقاصده، وهذا هو مفهوم التجديد للدين أو لأمره على نحو ما جاء في حديث المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم -: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»²⁵. والضابط القريب لهذا التجديد تحقيق الأصل في نقائه الأول على ظاهره أو حملا على مقاصده البينة.

وبالمعنى الثاني لا يمس التجديد الثوابت والأصول الممثلة لأساس بنية العلم في موضوعه الرئيس، ولا المقاصد والغايات التي ظهر العلم لأجل تحقيقها. وإذا كان أهل الأصول والقواعد الفقهية يقولون: «كُلُّ تَصَرُّفٍ تَقَاعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ مَقْصُودِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ»²⁶؛ فلنا أن نقول مُقَابِلِينَ لِهَذِهِ الصِّيَاغَةِ: «كُلُّ تَصَرُّفٍ فِي عِلْمٍ يُخْرِجُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَوْ يَتَقَاعَدُ عَنْ تَحْصِيلِ مَقْصُودِهِ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ».

وسواء كان التجديد للتطوير أو للإحياء فهو لا ينفك عن معنى الاجتهاد على النحو الذي تقرر لدى الأصوليين أيضا: «بذل الفقيه جهده العقلي في استنباط حكم شرعي من دليله، على وجه يحس فيه العجز عن المزيد»²⁷.

وعلى هذا فإنني لا أستبق الأحداث في ورقتي هذه، حين أصرح بأن التجديد على المعنى الثاني لعلم الكلام، إنما يكون في الأدوات والوسائل ومسائل الشبهات الحادثة، لا في أصل موضوع العلم ووظيفته والغاية من الاشتغال به. وقد عرفنا منذ البداية حقيقة الكلام وموضوعه وهدفه، وكل ذلك متعلق بتصور علوم الدين وطبيعة أحكامه التي يمثل الاعتقاد جزءا أصيلا منها، وكذا حفظه الإيجابي

²⁵ - أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام سلطان العلماء (ت660هـ): قواعد الأحكام في مصالح الأنام - 143/2. راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد. ط مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، مصر 1414هـ - 1991م.

²⁶ - حديث صحيح أخرجه أبو داود في أول كتاب الملاحم من سننه. 6/349 ح 4291، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قره بللي. ط1، دار الرسالة العالمية - بيروت، لبنان 1430هـ - 2009م.

²⁷ - الشيخ علي حسب الله: أصول التشريع الإسلامي - ص 79. ط دار المعارف - القاهرة، مصر، 1985م.

بإقامة الحجج، وحفظه السلبي بدفع الشبه ودرء الاعتراضات²⁸. الموضوع الأصلي والمقصد ثابتان، ومسائل الشبه والاعتراضات ومنهج الاستدلال ومادته وأسلوب الخطاب ... كل ذلك محل تجديد يوائم به المتكلم مُعطيات عصره، ويُلبّي به الحاجات الخاصة بجيله وزمانه، وهكذا يتابع البناء على الأساس الراسخ، ولا يكون كالتّي نقضت غزلها من بعد قُوّة أنكاثا، ولا كالمُنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

وأراني مضطرا هنا إلى الإعلان عن موافقة الدكتور حسن حنفي في أن علم الكلام في مسيرة أطواره منذ نشأته، وعلى أيدي علمائه المجتهدين في تجديد دائب، وفي مراجعة مستمرة للمنهج وأدوات الحجج ومسائل الشبهات؛ لكن دون مساس بمقاصد العلم ولا بموضوعه الأصلي.

ولقد كان المتكلمون السابقون في إطار مذاهبهم يرجعون النظر في كيفية صياغة الاستدلال مع وحدة المقالة أو الرأي المذهبي الذي يحتجون لإثباته، ولا إشكال في تجاوز صور الاستدلال التقليدية إلى المادة التي يمتاح منها المستدل، ويعتمد عليها في صياغة أدلته في لغة يدركها أهل زمانه، وبأسلوب عصري. وهذا العمل نفسه قام به المتكلم المسلم في عصر العطاء؛ فتطور به علم الكلام في مسائل الدقيق واللطيف، وفي مادة الدلائل العقلية وفي صورها جيلا بعد جيل، إلى أن بلغنا زمان الجمود وانحسار العطاء. ومن ثمّ تكون الدعوة الضرورية اليوم للتجديد هي دعوة حقيقية لإحياء الوظيفة الكلامية، وللقيام بما قام به المتكلم الأوّل الذي عرف أصوله وثوابته، وعاش عصره بكلّ معارفه ومُتغيّراته.

وهذا العمل لا يتّم إلا باستيعاب ما قدّمه المتكلمون من جميع الطوائف الإسلامية، فلا شك في أنّ الفرق الكلامية الإسلامية - سُنّية كانت أو شيعية - على

²⁸ - وراجع أستاذنا الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي: علم الكلام بين ماضيه وحاضره. ص 740. ضمن كتاب مؤتمر دور العقيدة في حياة الإنسان المعاصر - المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة الإسلامية، جامعة القاهرة - كلية دار العلوم - قسم الفلسفة الإسلامية، 3 - 4 مايو 1998م.

ما بينها من خلافات بعيدة غامضة أو قريبة ظاهرة في الأصول أو في الفروع، وبرغم أنها تجاوزت بآثارها نفثات العقول وحجج البيان أحيانا إلى مضاربة السيوف وميادين الطعان - قد وهبت علم الكلام في تاريخه الطويل كثيرا من الحيوية والسعة موضوعا ومناهج بحث واحتجاج، ومنحت له هيكلًا ضخما ضم بين جنباته أنواعا من التجارب الثرية في دراسة المسائل الكلامية، بحيث يكون الاطلاع عليها والتفكير في حصيلتها وفي نقدها وغربلتها - أوسع مصدر يهب المتكلم المعاصر ملكة البحث في هذا العلم.

ويمكننا أن نأخذ في تأكيد ذلك بمنهج الشيخ محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ) في ترتيب العلوم وكيفية طلبها في صياغة العالم أو الباحث في مجال العلوم الإسلامية، وترك له نتيجة دراسته الشخصية لعلم الكلام؛ فإنه بدأ بعلوم اللغة واللسان، وثنى بعلم المنطق مقاربا تصنيف الفارابي للعلوم، ثم عيّن في المرتبة الثالثة علم أصول الفقه، وقال: «ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ بَعْدَ إِتْقَانِ فَنِّ أَصُولِ الْفِقْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ سَمَاعِ مَطْوَلَاتِهِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِفَنِّ الْكَلَامِ الْمُسَمَّى بِأَصُولِ الدِّينِ وَيَأْخُذَ مِنْ مَوْلاَفَاتِ الْأَشْعَرِيَّةِ بِنَصِيْبِ، وَمِنْ مَوْلاَفَاتِ الْمُعْتَزَلَةِ بِنَصِيْبِ، وَمِنْ الْمَوْلاَفَاتِ الْمَاتَرِيْدِيَّةِ بِنَصِيْبِ، وَمِنْ مَوْلاَفَاتِ الْمُتَوَسِّطِيْنَ بَيْنَ هَذِهِ الْفِرْقِ كَالزِّيْدِيَّةِ بِنَصِيْبِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ كُلَّ هَذَا عَرَفَ الْاِعْتِقَادَاتِ كَمَا يَنْبَغِي وَأَنْصَفَ كُلَّ فِرْقَةٍ بِالْتَرَجِيْحِ أَوْ الْاِتْرَجِيْحِ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَقَابَلَ كُلَّ قَوْلٍ بِالْقَبُولِ أَوْ الرَّدِّ عَلَى حَقِيْقَةٍ ...

وَإِيَّاكَ أَنْ يَثْبِيْحَ عَنِ الْاِشْتِغَالِ بِهَذَا الْفَنِّ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ كَلِمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي التَّنْفِيْرِ عَنْهُ وَالتَّزْهِيْدِ فِيهِ وَالتَّقْلِيْلِ لِفَائِدَتِهِ فَإِنَّكَ إِذَا عَمِلْتَ عَلَى ذَلِكَ وَقَبِلْتَ مَا يُقَالُ فِي الْفَنِّ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ كُنْتَ مُقْلِدًا فِيمَا لَا يَدْرِي مَا هُوَ»²⁹.

ولئن لم يكن من قصد تجديد التطوير هدم ما كان وقام؛ فليس من قصد تجديد الإحياء خوض ما خاضه المتكلمون من معارك فرضتها ظروف عصرهم

²⁹ - الشيخ محمد بن علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الأدب - ص 145. ط، دار ابن حزم - بيروت، لبنان

1419هـ - 1998م.

المعرفية والسياسية والاجتماعية بشكل عام؛ فالغاية من قولي السابق تحصيل مَلَكة البحث، وتمحيص المسائل الأصول الثابت من غيرها.

وإنني مع انتمائي غير الخافي لعلم الكلام وحرصني عليه، وقد عشت في رحابه نحو ربع قرن من الزمان طلباً وتدريساً؛ لا أستطيع أن أنكر غلبة الطبيعة الجدلية عليه في تاريخه بين طوائفه وفرقه من جانب، وبينهم وبين غير المسلمين من جانب آخر، ولعل ذلك ما دفع الإمام الحجة أبا حامد الغزالي إلى تشبيهه بالدواء الذي يطلب عند المرض مع عده من المهمات في علوم الدين، وجعله يكتب في إجماع العوام عن دراسته، وإن كان رآه في النهاية وافيًا بمقصود أهله غير وافي بمقصود الغزالي الذي شرع في طلب يقين المشاهدة والعيان³⁰.

وكذا العلامة ابن خلدون لعل مراعاة هذه النظرة هي التي دعت إلى القول بأن علم الكلام بظهور مذهب أهل السنة في زمانه واندحار أهل الزيغ ويطلان شبههم - لم يعد درسه والاشتغال به ذا حاجة ماسة، وإن كانت له فائدة ففي آحاد الناس وطلبة العلم؛ إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها³¹. ولقد سبق أن ذكرت في بحث سابق لي أن هذه النظرة المراعية للجانب السلبي الدفاعي من علم الكلام، والحاصرة له في مجال حماية عقائد أهل السنة دون غيرهم من المسلمين - تفتقر إلى كثير من الواقعية في التعبير عن تاريخ علم الكلام وعن واقعه ودوره المستقبلي أيضاً³²، وأنا الآن أنظمن وأخفف من غلوائتي؛ فادعو إلى مراعاة تخفيف حدة هذه الغلبة في درسنا الكلامي الجديد خاصة

³⁰ - راجع لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت505هـ): مقدمات الاقتصاد في الاعتقاد، ورسالة إجماع العوام عن علم الكلام، والمنقذ من الضلال.

³¹ - انظر عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول من تاريخه المسمى: ديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر). 1/ 591. تحقيق الأستاذ خليل شحادة، ومراجعة الدكتور سهيل زكار. ط دار الفكر - بيروت، لبنان 1421هـ. 2001م.

³² - انظر بحثي: مسائل كلامية لدى العلامة ابن خلدون - ص 9. مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، باكستان. العدد الثالث - المجلد الخمسون 1436هـ - 2015م. هذا تاريخ النشر والبحث تم تدوينه قبل ذلك ببضع سنين.

الجدل المذهبي والطائفي الإسلامي، وإلى تعزيز الاهتمام بالجانب الإيجابي لعلم الكلام في إثبات العقائد وتقديم براهين جديدة تمتاح مادتها من معطيات العصر العلمية؛ دون غلو في التخف من الجدل ودفع ما نعتقد بطلانه إذ المراد إقامة التوازن فحسب.

وقد نقل أستاذنا الدكتور حسن الشافعي عن الدكتور فضيلة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق قوله: «أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشاعرة ومذهب ابن تيمية». ثم علق قائلاً: «فهل كان النصف الأخير كله من القرن الماضي إلا مناقشة شرسة أحياناً وهادئة أحياناً أخرى بين هذين المذهبين. أي بصيرة نافذة وحكمة بالغة كان يتمتع بها هذا المعلم الحكيم (رحمه الله)؟!»

لقد حدث استقطاب واضح - على صعيد الفكر الديني، امتدت آثاره إلى الجماهير في الشارع الإسلامي، وعلى امتداد العالم الإسلامي كله، في أفريقيا وآسيا - خلال المدة المذكورة، وانضمت الفصائل الجديدة أو ما يدعى بالحركات الحديثة إلى جانب المذهب الذي أسماه الشيخ «مذهب ابن تيمية»، والذي قال عنه في عبارته التوضيحية التالية (مذهب الذين يسمون أنفسهم «السلفية») وقد يسميهم البعض «الوهابية»، وذلك في مقابل الفكر الشرعي الرسمي التقليدي الذي يتبع المذاهب المرعية في العقيدة والعمل أو الكلام والفقهاء، وهو الذي أسماه الشيخ مذهب الأشاعرة، ويضم في إطاره الماتريدية، وربما الإباضية والظاهرية، ويستند إلى تراث المدارس الدينية، كالأزهر في مصر، والقرويين في فاس، والديوبندية في شبه القارة الهندية».

وفي إطار القراءة المستقبلية لواقع العالم الإسلامي ومحاولة تحليل أحداثه الجارية - راح أستاذنا يقرر أن ذلك التنافس على مدى ربع القرن القادم سيستنفد نفسه، ليسلم الدورة إلى صراع آخر: هو الصراع بين الجناح السني التقليدي الرسمي ذي الروح الأزهرية، عقيدة وفقهاً بعد أن يحتوي خير ما في التيار الآخر

المعارض أو المنافس المصارع الآن في فطنة جدلية تاريخية؛ ليقف في مواجهة الفكر الشيعي الاثنا عشري ومعه سائر الطوائف المشابهة التي تقف في جانبه فعلا منذ أمد، وسيمثل هذا الصراع أو «التنافس» مستقبل العالم الإسلامي.

ولا يلبث شيخنا أن يقول ختما لقراءته: «ولأنني في الجانب السنّي التقليدي الأزهري: فالكلام الجديد أو الفكر الديني الجديد يجب أن يتعامل مع الواقع الداخلي للمسلمين في إطار (التوحيد والعدل والحرية)، ويعرض مفهوماً (للإسلام الحضاري)، لا الراديكالي الأصولي ولا السياسي السطحي. وأن يحرص على حفظ التنافس أو حتى الصراع مع الجانب الشيعي في ساحاته الهادئة الرزينة حفظاً لطاقة الأمة، وأن يعي الموقف التاريخي مع قوى العالم الأخرى، وليس الغرب فقط، بل مع الهند والصين، وما وراءهما أيضاً في إطار التواصل، والخصوصية، الاستقلال»³³.

على أنني بعد تقديم ذلك الإطار العام لا أريد أن أثقل قارئى بحديث مكرور عن صور الاستدلال العقلي والنقلي عند المتكلمين، وقد سبق أن تناول ذلك شيخى الأستاذ الدكتور حسن الشافعي في بحثه عن سيف الدين الأمدي الذي نال به درجة الماجستير في منتهى العقد السادس من القرن الماضي³⁴، وكذا رفيقه الشيخ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل - رحمه الله - في دراسة نقدية بعنوان: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية³⁵، وتناوله غيرهم من الباحثين في علم الكلام وأصول الدين. ثم إنني تعرضتُ له في دراسة موسعة تقارن بين الفكر الكلامي الاثنا عشري خلال القرن الخامس الهجري وآراء متكلمي أهل السنة، في

³³ - الدكتور حسن الشافعي: ختام بحثه عن (الإمام محمد عبده وتجديد علم الكلام).

³⁴ - راجع الدكتور حسن الشافعي: الأمدي وآراؤه الكلامية - ص 121: 161. ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، مصر 1418هـ - 1998م.

³⁵ - راجع الدكتور يحيى هاشم فرغل: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية. مطبعة دار القرآن، ونشر دار الفكر العربي - القاهرة، مصر 1978م.

عمل موسوعي صدر منه ثلاثة أجزاء، وكان ثالث فصول الجزء الثاني منها بعنوان: «الاستدلال في أصول الدين .. أنواعه وصوره»³⁶.

لكنني قبل أن أحتم ورقتي يلزمي أن أشير - وفاء بما تحمّلتها في المقدمة - إلى بعض النماذج من الاستدلال الكلامي الذي يمتاح مادته العلمية من المعطيات العلمية البينة لأهل زماننا. وأقرر مع ذلك أن الدرس أو البحث الكلامي المعاصر قد تجاوز مشكلة الدور التي حالت دون الاستدلال بالأدلة النقلية النصية في كثير من مسائل الإلهيات التي يتوقف عليها إثبات النبوة .. هذه المشكلة التي حصرت الإفادة من الدليل النقلية في مجال السمعيات من علم الكلام. وقد كان هذا خطأ اعترف به كثير من المنصفين الذين وقاهم الله شر التعصب البغيض؛ فلا تخلو مسألة من المسائل الأصلية من نص يتضمن الدلالة العقلية الصريحة، أو يتضمن الدلالة على أصولها، إلى جانب عدد من النصوص التي تقرر الحكم الاعتقادي تقريراً. إلا أن الاستدلال على المعارض المنكر بهذه النصوص المتضمنة للدلائل العقلية أو أصولها في المسائل السابقة لإثبات النبوة إنما يكون بالحجة المستنبطة من مفهوم النص، وذلك استدلال بالمفهوم المعقول لا بحجية النص وقداسته التي تلزم معتقد ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الكلام عن نماذج الاستدلال الجديد أقول: لقد كان الاستدلال الكلامي التقليدي على إثبات وجود الله - تعالى - يمتاح مادته من النظر في العالم وقسمته إلى جواهر وأعراض، والدلالة على كونه حادثاً محتاجاً إلى محدث صانع له. وتمام هذه الدلالة مؤسس على ثلاث قواعد سلبية: نفي تسلسل الحوادث أو نفي تسلسل ما مضى حدوثه بالفعل بلا أول، ونفي الترجيح بلا مرجح، ونفي الدور. وعلماء الطبيعة والرياضة في العصر الحديث يتكلمون عن حدوث المادة،

³⁶ - أصل هذا العمل رسالة نلت بها درجة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة 2005م، وسعت في إتمامه بعد ذلك في أثناء فترة عملي بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وصدرت أجزاءه الثلاثة الأولى تحت عنوان: دراسات في التشيع الإمامي في ضوء التقريب بين الفرق والمذاهب الإسلامية. ط1، المكتبة القدوسية - لاهور، باكستان 2007م.

وعودة الكون في نشأته إلى أصل أول توسع بالانفجار العظيم، وما زال يتسع إلى الآن، وعلماء الفلك يقرون بحقيقة التمدد الكوني الذي يرجع بالارتداد الزمني إلى أصل أول مسبق بعده.

إن القاعدة الكلامية الأولى - على سبيل المثال - يعبر عنها الآن بقول علماء العصر: «إذا وُجِدَ تَسْلُسُلٌ تُنتِجُ وتُعرفُ كُلُّ حَلَقَةٍ فيه من التي قبلها؛ فلا بدَّ من وجود الحلقة الأولى في هذه السلسلة، وهي من جنس حلقات السلسلة، وهي الأصل الذي انطلقت منه السلسلة ...»

كذلك تنص الرياضيات المعاصرة على أنه لو كان لدينا زمرة من العناصر، ينتج فيها كل عنصر من عنصر آخر؛ فلا بد من وجود العنصر الأول فيها سواء كان عدد عناصر الزمرة منتهيا أو غير منته، ويدعى بالعنصر المؤلِّد³⁷. لم يعد في العلوم الحديثة متسع للكلام عن التسلسل من جهة الماضي فيما مضى وجوده وانقضى حدوثة.

إن المتكلم المعاصر ليس ملزما بأن يقدم هذه القواعد على النحو الذي قدمها به الرازي، ولا على النحو الذي قدمها به التفتازاني أو الجرجاني، ولا أن يقدم لها أمثلتهم .. إنها أصول عقلية لتمام الدلائل على حدوث العالم وحاجته إلى صانع مما يلج في النهاية من باب دلالة الفعل على الفاعل، والأثر على المؤثر، وإن أمثلة هذه القواعد والمادة المستعملة في هذه الدلائل تخضع لمعارف البشر التي تتسع زمانا بعد زمان. وهذه المعارف المتغيرة كانت وراء اعتراضات المتكلمين المتأخرين على أسلافهم جيلا بعد جيل في المدرسة الكلامية الواحدة، وهي في الغالب اعتراضات على طريقة الإثبات أو مادته لا على الأصول المثبتة سمعية كانت أو عقلية.

³⁷ - الدكتور عبد المجيد العرجاوي: البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية. ص 23. ط 1، دار وحي القلم - دمشق، سوريا 2003م.

لقد بُعث النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بمعجزة القرآن العربي، في عرب أقحاح لا يفخرون بشيء في حياتهم كما يفخرون بنتاج أَلستهم وبلاغة بيانهم؛ حتى إنهم شبهوا من لا يعرف لغتهم بالبهيمة العجماء التي لا تستطيع أن تبين عما في نفسها. والمعجزة طريق إثبات النبوة وإقامة الحجة التامة على المنكر الجاحد. وأصل الدلالة في ذلك صورة السبر والتقسيم المنحصرة بين أمرين أو احتمالين لا يجتمعان، وذلك أن محمدا - صلى الله عليه وآله وسلم - صادق في بلاغه القرآن عن ربه أو هو كاذب فيما ادعى. ولو كان القرآن من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير، ولقدر البشر على الإتيان بمثله. وقد بحثت وجوه الإعجاز في القرآن؛ فقليل ببلاغة النظم، وقليل بالصرفة، وقليل بتمام التشريع والعدل ... حتى قيل بوجه الإعجاز الموسيقي في تلاوة القرآن وترتيبه.

وقد اتسع اليوم الكلام عن وجوه الإعجاز العلمي في القرآن من التصريح بحقائق لم يعرفها العلم البشري في زمان الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - على وجه اليقين القاطع. والدلالة هي .. هي دلالة السبر والتقسيم المنحصرة بين احتمالين هما: أن محمدا - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أخذ الحقيقة العلمية عن ربه الخالق والعالم بما خلق، أو أنه أخذها عن غيره نقلا أو بحثا وتجريبا بنفسه. وإذا كان الاحتمال الثاني باطلا بلا شك؛ فقد صح أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - تلقى القرآن بهذه الحقائق عن ربه الخالق.

وعندما يبلغ الكلام بنا حد الإقناع بتأكيد البعث والنشور والحشر، وهو أمر سمعي قصارى جهد العقل فيه الحكم بالجواز والإمكان، والمتكلمون في توجيه نصوص الوحي وتأويلها يقول بعضهم بأن الإعادة للعين، ويقول بعضهم بأن الإعادة للمثل مع الأجزاء الأصلية أو غيرها؛ فهذا هنا قد يكون للمعارف العلمية الجديدة دور في ترجيح أحد هذه الآراء، بما ثبت من حقيقة الشريط الجيني الخاص بخلايا كل كائن حي، وكذا ما ظهر من أن خلايا أجسام الأحياء تتبدل كل بضع سنين،

ومع ذلك فَيَدِي التي كانت لي جنينا ورضيعا وشابا هي نفسها يدي التي لي الآن وأنا كَهْلٌ قد تجاوزت الأربعين.

هذه إشارات عجلى لا تعدو مقام التمثيل لإمكان تجديد التطوير في صور الاستدلال الكلامي وفي مادته العلمية، ولي بعد ذلك بحث تطبيقي مطول في بيان حقيقة الكلام وحكمه دونته قبل سنوات ثم نشر من قريب بعنوان: «مسألة الكلام الإلهي بين الشيعة الاثنا عشرية وأهل السنة خلال القرن الخامس الهجري .. دراسة نقدية في ضوء المعطيات العلمية للعصر الحديث»³⁸.

الخاتمة

والخلاصة أن المتكلم العصري أو الباحث في مجال «علم الكلام» مادام واعيا بحقيقة علمه ووظيفته؛ ولديه إحاطة على نحو ما بما قدمه أسلافه، والتزام بمتابعة الأفكار والفلسفات بل الأديان الجديدة، وبطرق أصحابها في إثباتها والدعوة إليها، مع متابعة الحقائق الثابتة مما يتوصل إليه العلم في معطياته التي تتجدد يوما بعد يوم؛ فسيكون لديه الاقتدار على الإنتاج الكلامي الجديد، والمواكب للعصر في بيانه لعقائده وفي الدفاع عنها، وفي بيان موقفه من العقائد والآراء الأخرى، مع مراعاة أن المنهج العام للمتكلم في الإثبات استنباطي، وفي الدفاع جدلي، وإن كان الباحث في علم الكلام يمكنه أن يستفيد بمناهج أخرى في الدراسة التاريخية للآراء، وفي المقارنة، وفي نقد الفلسفات، وتحليل أصول المذاهب، وتركيب المذهب المتفرقة أقواله في المصادر القديمة وإعادة بنائه، وهذا له حديث آخر يكتمل به الكلام في إعادة صياغة البحث العلمي في مجال «علم الكلام» بصورة عامة.

³⁸ - بحث منشور بحولية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان - العدد الحادي والعشرون 1434هـ

المراجع

- أحد فرامرز قراملكي (الدكتور): - الهندسة المعرفية للكلام الجديد. ترجمة : حيدر نجف، وحسن العمري. ومراجعة: عبد الجبار الرفاعي. ضمن سلسلة (كتاب قضايا إسلامية معاصرة). ط1، دار الهادي 2002م.
- مقال بعنوان «الكلام الجديد وفلسفة الدين». - مجلة المحجة، لبنان، العدد الثامن، شتاء 2004م.
- مقال بعنوان «تحليل مفهوم التجدد في الكلام الجديد» ترجمة: حبيب فياض، مجلة المنطلق - ع 119 (خريف وشتاء 1997 . 1998).
- حسن حنفي (الدكتور): الاتجاهات الجديدة في علم الكلام. حوار مع الدكتور حسن حنفي ضمن (قضايا إسلامية معاصرة - الاجتهاد الكلامي .. مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد). تحرير عبد الجبار الرفاعي. ط دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان (ب - ت).
- حسن حنفي (الدكتور): من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية). ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، والمركز الثقافي العربي للطباعة والنشر - بيروت، لبنان 1988م.
- حسن محمود عبد اللطيف الشافعي (الدكتور): الأمدي وآراؤه الكلامية. ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، مصر 1418هـ - 1998م.
- حسن حنفي (الدكتور): الإمام محمد عبده وتجديد علم الكلام. ورقة بحث في الذكرى المئوية للإمام محمد عبدة بمكتبة الإسكندرية، مصر 2005م.
- حسن حنفي (الدكتور): علم الكلام بين ماضيه وحاضره. ورقة بحث في مؤتمر دور العقيدة في حياة الإنسان المعاصر. كتاب المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة

الإسلامية - قسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، مصر
1419هـ - 1998م.

حسن حنفي (الدكتور): قول في التجديد. نشر مجلس حكماء المسلمين بدولة الإمارات العربية المتحدة. ط1، دار القدس العربي. القاهرة، مصر 1437هـ
2016م.

حسن حنفي (الدكتور): المدخل إلى دراسة علم الكلام. ط2، مكتبة وهبة. القاهرة،
مصر 1411هـ. 1991م.

شبلبي النعماني الهندي (ت1914م): علم الكلام الجديد. ترجمة جلال السعيد
الحفناوي، والسباعي محمد السباعي. ط1، المركز القومي للترجمة بوزارة
الثقافة. القاهرة، مصر 2012م.

الشيخ محمد شقير (الدكتور): دراسات في الفكر الديني .. فلسفة الدين والكلام
الجديد. ط1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان 1429هـ
- 2008م.

طه عبد الرحمن (الدكتور): في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. ط2، المركز
الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب 2000م.

عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي (ت756هـ): المواقف في علم الكلام.
ط عالم الكتب - بيروت، لبنان (ب - ت).

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي (القاضي ولي الدين أبو
زيد ت808هـ): مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول من تاريخه المسمى: ديوان
المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن
الأكبر). تحقيق الأستاذ خليل شحادة، ومراجعة الدكتور سهيل زكار. ط دار
الفكر. بيروت، لبنان 1421هـ. 2001م.

عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. تحقيق محمد حجازي. نشر مكتبة الثقافة الدينية. ط مطبعة المدني القاهرة، مصر 1988م

عبد العزيز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين سلطان العلماء (ت660هـ): قواعد الأحكام في مصالح الأنام. راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد. ط مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، مصر 1414هـ - 1991م.

عبد المجيد العرجاوي (الدكتور): البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية. ط1، دار وحي القلم - دمشق، سوريا 2003م.

عدنان محمد أسامة (الدكتور): التجديد في الفكر الإسلامي. ط1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الدمام، السعودية 1424هـ.

علي حسب الله (الشيخ): أصول التشريع الإسلامي. ط دار المعارف - القاهرة، مصر، 1985م.

علي بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدي): ثمرات العلوم. ط مطبعة الشرقية، مصر 1323هـ.

كمال الدين أحمد البياضي: إشارات المرام من عبارات الإمام. تحقيق يوسف عبد الرزاق. ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، مصر 1368هـ - 1949م.

ليفي بريل: فلسفة أوجست كونت. ترجمة الدكتور محمود قاسم، والدكتور السيد محمد بدوي ط دار الكتب المصرية 1952م.

مجموعة من الباحثين: العقلانية الإسلامية والكلام الجديد. إصدار مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - سلسلة الدراسات الحضارية. ط1، بيروت، لبنان 2008م.

محمد بن علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الأدب. تحقيق عبد الله يحيى السريحي. ط1، دار ابن حزم - بيروت، لبنان 1419هـ - 1998م.

محمد مجتهد شبستري: مدخل إلى علم الكلام الجديد. ترجمة جواد علي، وعلاء زيد. ضمن سلسلة (كتاب قضايا إسلامية معاصرة). ط1، مؤسسة الأعراف للنشر 1418هـ - 1998م.

محمد بن يوسف (أبو الحسن العامري النيسابوري ت381هـ): الإعلام بمناب الإسلام. تحقيق الدكتور أحمد عبد الحميد غراب. ط1، مؤسسة دار الأصاله للثقافة والنشر والإعلام - الرياض، السعودية 1408هـ - 1988م

مصعب الخير إدريس السيد مصطفى الإدريسي (الدكتور): دراسات في التشيع الإمامي في ضوء التقريب بين الفرق والمذاهب الإسلامية. ط1، المكتبة القدوسية - لاهور، باكستان 2007م. (ثلاثة أجزاء: أولها بعنوان: «مدخل إلى دراسة الفكر الكلامي الاثنا عشرية»، والثاني بعنوان: «مقدمات النظر ودقيق الكلام»، والثالث بعنوان: «مسائل التوحيد عند الشيعة الاثنا عشرية دراسة مقارنة»).

مسائل كلامية لدى العلامة ابن خلدون. مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، باكستان. العدد الثالث - المجلد الخمسون 1436هـ - 2015م.

مسألة الكلام الإلهي بين الشيعة الاثنا عشرية وأهل السنة خلال القرن الخامس الهجري .. دراسة نقدية في ضوء المعطيات العلمية للعصر الحديث. حولية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان - العدد الحادي والعشرون 1434هـ - 2013م.

يحيى محمد: علم الكلام والكلام الجديد .. الوظيفة والهوية. بحث منشور على شبكة الإنترنت:

يحيى هاشم حسن فرغل (الدكتور): الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية.
مطبعة دار القرآن، ونشر دار الفكر العربي - القاهرة، مصر 1978م.